قدّم التفاتات لسانية مبكرة تذكرنا بعلماء اللغويات الحديثة
وقفة مع كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ

سلطان الزغول(*)

يعدد ياقوت الحموي في معجم البلدان كتب الجاحظ، فتدعونا كثرتها وتنوعها إلى الدهشة، ما يدفع إلى الجزم أننا أمام مثقف موسوعيّ مدهش في مشاربه الثقافية واهتماماته. أما القليل الذي وصلنا من هذه الكتب فيمثّل نماذج على غنى الجاحظ وتميّزه الأسلوبي، ومنها: الحيوان، والبخلاء، والتربيع والتدوير، ثم (البيان والتبيين) وهو من آواخر كتبه وأهمها. ويرجح ميشال عاصي أنّ عنوانه الحقيقي هو (البيان والتبيُّن) بياء واحدة مشددة (مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ: 40-41)، أما الشاهد البوشيخي فيخصص فصلا من كتابه «مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيّن للجاحظ» لمناقشة صحة العنوان المشهور، ليخلص إلى أنّ أوثق نسخ الكتاب عنونت بالتبيّن، كما ورد ذكر ذلك في متون النسخ جميعا خلال وصف الجاحظ لكتابه. مما دفعه لأن يثبت التبيّن في عنوان دراسته.

وليست مسألة عنوان «البيان» هي الأجدى للمناقشة، بل ما فيه من بلاغة تطبيقية، تُعدّ من أرقى ما وصل إليه العقل العربي في ذلك العصر، حتى

(*) أكاديمي وباحث أردني.

قال ابن خلدون في مقدمته: «سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن (الأدب) وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها وفروعٌ عنها». على أنّ الكتب الثلاثة التي ذكرها ابن خلدون قد استفادت من «البيان» الذي يقدم لنا نظرات لسانية عربية، ونماذج بلاغية، إضافة إلى مناقشات ولمعات في قضايا شغلت النقد والثقافة العربية في العصور التالية؛ منها قضية اللفظ والمعنى، وقضية السرقة الشعرية، وقضية الطبيعة والصنعة، وقضية القديم والجديد، ومنها أيضا موقف الإسلام من الشعر، ومساءلة نصّ الحديث النبوي مساءلة عقلية لإثبات صحته، جنبا إلى جنب مع جرح وتعديل رواته. إضافة إلى كون «البيان» كنزا لا يستغني عنه دارس في الأدب، أو اللغة، أو التاريخ، أو التاريخ الاجتماعي، بما فيه من روايات وأشعار ومواقف وحكايات ذات دلالات لا تنضب.

البيـــان:

فإذا ما نظرنا إلى مدلول البيان عند الجاحظ وجدناه يقول: «مدار الأمر على البيان والتبيُّن، وعلى الإفهام والتَّفهُّم، وكلّما كان اللّسانُ أبْيَنَ كان أحمدَ، كما أنّه كلما كان القلبُ أشدّ استبانةً كان أحمد، والمفهمُ لك والمتفهِّم عنك شريكان في الفضل، إلاّ أنّ المفهِم أفضل من المتفهِّم». فالبيان الذي يقصد إليه في كتابه، ويقدم نماذج تطبيقية متنوعة منه هو قدرة الخطاب على النفاذ إلى عقل المخاطب وقلبه، على أنّ هذا النفاذ يلزمه أن يجمع إلى جانب التعالي فنيّا، تكثيفا ووضوحا، بل إنّ «مَدار اللائمة ومستقَرّ المَذَمّة حيث رأيتَ بلاغةً يخالطها التكلف، وبياناً يمازجه التزيّد». وفي بعض الروايات التي ينقلها الجاحظ يتضح تماما الأسلوب البياني الأمثل للخطاب:

«تلخِيص المعاني رِفْقٌ، والاستعانة بالغريب عَجْز، والتَّشادقُ مِن غير أهل البادية بُغْض، والنَّظَر في عيون النَّاس عِيّ، ومَسُّ اللِّحية هُلْك، والخروجُ مِمَّا بُنِي

عليه أوَّلُ الكلام إسهاب... رأس الخَطابة الطبْع، وعَمودُها الدُّربة، وجناحاها رواية الكلام، وحَلْيُها الإعراب، وبهاؤُها تَخيُّر الألفاظ، والمحبَّة مقرونةٌ بقلّة الاستكراه».

فعلى صاحب الخطاب أن يوجز معانيه، ويبتعد عن غريب اللغة، وعن تقليد أهل البادية في طريقة الأداء، حتى يمثّل طبيعته اللفظية والنفسية دون ادعاء. كما عليه أن يحدد بناء خطابه فلا يخرج منه عبر تفريعات وإسهابات لا تخدم غرضه الأساسيّ، وعليه أن يمتلك طبعا ينمّيه بالدربة والرواية، وأن يهتم باختيار ألفاظه ونطقها بعربية صحيحة دون لحن، إضافة إلى سمات لا بدّ أن تتوفّر في شخصه، كأن يكون محببا جاذبا بلغته وأسلوبه، واثقا من نفسه وقدراته. والنصّ الذي يقدمه الجاحظ يشير إلى أنّ مسّ اللحية والنظر في عيون الناس خلال بثّ الخطاب من علامات العجز والارتباك.

اللفظ والمعنى:

هذه قضية شغلت النقد العربي القديم ردحا طويلا من الزمن، وإذا حاولنا تلمّسها في «البيان» وجدنا الجاحظ يقدم لنا عبر أقوال يتبناها موقفا منسجما مع تمجيده للبيان، الذي عدّه القدرة على صياغة خطاب راق فنيّا -على مستوى الكلام أو الكتابة- يتميّز بالوضوح والتكثيف، لكنّه يحمل مضامين راقية أيضا، ليس لصاحب الخطاب من فضل فيها إلا فضل الاكتشاف، ثم القدرة على توصيل اكتشافه إلى المخاطب. وكأنما ينهل هذا الموقف من مهد فلسفة إسلاميّة تعتبر المعنى إلهيا قائما في النفوس، لكنه مستور يحتاج إلى من يرفع عنه الحجاب، وهذه مهمة جليلة نافعة، يمدحها الله ويحثّ عليها: «المعاني القائمة في صدور النّاس... مستورةٌ خفيّة... وإنما يُحيي تلك المعانيَ ذكرُهم لها، وإخبارُهم عنها، واستعمالُهم إيّاها، وهذه الخصالُ هي التي تقرّبها من الفهم، وتُجَلِّيها للعقْل، وتجعل الخفيَّ منها ظاهراً، والغائبَ شاهداً، والبعيدَ قريباً... وعلى قَدر وُضوح الدَّلالة وصوابِ الإشارة، وحسن الاختصار، ودقّة

المَدْخَل، يكون إظهارُ المعنى، وكلّما كانت الدَّلالة أوضَحَ وأفْصَح، وكانت الإشارةُ أبيَنَ وأنْوَر، كان أنفعَ وأنْجَع، والدَّلالة الظاهرةُ على المعنى الخفيِّ هو البيانُ الذي سمعْتَ اللهَ عزّ وجلّ يمدحُه، ويدعو إليه ويحثُّ عليه، بذلك نَطَقَ القُرآنُ، وبذلك تفاخَرَت العَرب. والبيان اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كشَفَ لك قِناعَ المعنى، وهتكَ الحِجَاب دونَ الضمير، حتّى يُفْضِيَ السّامعُ إلى حقيقته».

وبما أنّ «مَدَارَ الأمرِ والغايةَ التي إليها يجري القائل والسّامع، إنَّما هو الفَهْمُ والإفهام؛ فبأيِّ شيءٍ بلغْتَ الإفهامَ وأوضَحْتَ عن المعنى، فذلك هو البيانُ في ذلك الموضع». لكنّ «حُكْمَ المعاني خلافُ حُكمِ الألفاظ؛ لأن **المعانيَ مبسوطةٌ إلى غير غاية، وممتدّةٌ إلى غير نهاية، وأسماءَ المعاني مقصورةٌ معدودة، ومحصَّلةٌ محدودة**». فإذا تساءلت عن السبب في امتداد المعنى إلى غير نهاية، وقصور الألفاظ ومحدوديتها، لم يعدُ أن يكون ما أشرت إليه من أنّ المعنى إلهيّ واللفظ بشريّ. وهذا هو الذي يدفع الجاحظ إلى اعتبار الكون قائما على نظام من الإشارات، أولها اللفظ الصادر عن أرقى المخلوقات – الإنسان –، وآخرها الحال التي تعبّر عنها الجمادات. يقول إدريس بلمليح: «العالم في نظر الجاحظ – رغم اختلاف مظاهره – يعتبر نظاما إشاريا. إنه ناطق بأجرامه ونباته وحيوانه. أي أنّ ضابط الرؤية أو عاملها المشترك، الذي يجمع مكوناتها المستقلة استقلالا ذاتيا هو البيان» (الرؤية البيانية عند الجاحظ).

أنواع الدلالة:

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ البيان يقتصر على الكلام، لكنّ الجاحظ يوضح لنا في التفاتات لسانية مبكرة – تستدعي إلى أذهاننا علماء اللغويات الحديثة – أن «أصناف الدلاّلات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياءَ لا تنقُص ولا تَزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد، ثم الخَطّ، ثمّ الحالُ التي تسمّى نِصْبةً». وإذا كان اللفظ هو قوة البيان الأولى المتعارف عليها بما فيه من بلاغة وجماليات، فإنّ الجاحظ يجد لزاما عليه أن يوضح باقي أصناف الدلالات،

وقد بدأ بالإشارة قائلا: «والإشارة واللّفظ شريكان، ونِعْم العونُ هي له، ونعم الترجمانُ هي عنه، وما أكثَرَ ما تنوب عن اللّفظ، وما تُغني عن الخطّ... ومبلغُ الإشارة أبعَدُ من مبلغ الصَّوت، فهذا أيضاً باب تتقدَّم فيه الإشارةُ الصوتَ، والصوتُ هو آلةُ اللَّفظ، والجوهرُ الذي يقوم به التقطيع، وبه يُوجَد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلاّ بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف، وحُسنُ الإشارة باليدِ والرأسِ، مِن تمام حسن البيان باللسان».

ثم ينتقل إلى الصنف الثالث من أصناف الدلالات، وهو الكتابة التي يسميها الخطَّ قائلا: «القلمُ أبقى أثراً، واللسان أكثَرُ هَذَراً... وقالوا: اللسان مقصورٌ على القريب الحاضر، والقلمُ مطلقٌ في الشاهد والغائب ... والكتاب يُقرَأ بكلِّ مكان، ويُدرَس في كلِّ زمان؛ واللسان لا يَعْدُو سامعَه، ولا يتجاوزُه إلى غيره». قبل أن يضيف: «وأمّا القَول في العَقْد، وهو الحسابُ دونَ اللَّفظ والخطّ، فالدَّليلُ على فضيلته، وعظَم قَدر الانتفاع به، قولُ اللَّه عزَّ وجل:... ﴿ **هُوَ الَّذي جَعَل الشَّمْسَ ضياءً وَالْقَمرَ نُوراً وقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلكَ إلاَّ بِالْحَقّ** ﴾ [يونس: 5]... والحسابُ يشتمل على معانٍ كثيرةٍ ومنافعَ جليلة، ولولا معرفةُ العبادِ بمعنى الحِساب في الدنيا لَما فهِمُوا عن اللَّه عزّ وجلّ معنَى الحسابِ في الآخرة».

ثمّ إنه يوضح مصطلح النِّصبة، فهي عنده «الحالُ النَّاطقة بغير اللّفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهرٌ في خلْق السماوات والأرض... فالدّلالة التي في المَوات الجامد، كالدّلالة التي في الحيوان الناطق، فالصَّامتُ ناطق من جهة الدّلالة، والعَجْماء مُعْرِبةٌ من جهة البُرهان...».

البلاغـــة:

يمكن القول إنّ البلاغة عند الجاحظ هي «البيان المقصور على لغة الكلام دون غيرها من سائر الدلالات على المعاني. وهكذا تكون البلاغة – من حيث

أنها البيان بلغة اللسان – أكمل نماذج الكلام وأرفعها شكلا وصياغة» (ميشال عاصي: 26). فهو يعرِّف البلاغة بقوله إنها «الإيجازُ في غير عَجْز، والإطناب في غير خَطَلٍ»، ثم يقول في موضع آخر: «أحسنُ الكلام ما كان قليلهُ يُغْنيك عن كثيرِه، ومعناه في ظاهر لفظه... فإذا كان المعنى شريفاً واللفظُ بليغاً، وكان صحيحَ الطبع بعيداً من الاستكراه، ومنزَّهاً عن الاختلالِ مصوناً عن التكلّف، صنَعَ في القُلوب صنيعَ الغَيث في التُّربة الكريمة». فإضافة إلى أن الإيجاز هو المطلب الأول عنده، يمكن الإسهاب إذا ما استدعت الحاجة التفصيل دون خطل وزيادات لا داعي لها. لكنّه يشير أيضا إلى أنّ اللفظ البليغ يجب أن يرافقه جمال المعنى. وهذه الموازنة بين رفعة اللفظ وجمال المعنى تتضح أكثر في قوله: "لا يكون الكلامُ يستحق اسمَ البلاغة حتَّى يسابقَ معناه لفظَه، ولفظُهُ معناه، فلا يكونَ لفظُه إلى سمعك أسبَقَ من معناه إلى قلبك».

يمكن القول إذن إنّ البيان والبلاغة عند الجاحظ تختلف عنها في اصطلاحات البلاغيين في العصور التالية. «فمعجم لغة النقد والجمالية الأدبية كان ما يزال في طور تكوّنه على يد الجاحظ ومعاصريه، وكانت معظم مفرداته ما برحت تتلمّس طريقها للخروج من دائرة الدلالة الخاصة بها عند كلّ باحث إلى دائرة الاصطلاح المشترك والدلالة التواضعية العامة في لغة الدارسين والنقاد» (ميشال عاصي: 22).

عيوب الخطاب:

ومقابل حديثه عن صفات الخطاب الراقي، يخصص الجاحظ جانبا كبيرا من «البيان» للحديث عن عيوب الخطاب التي تظهر في الكلام. وهو يقسمها إلى: عيوب ناتجة عن خلل في جهاز النطق، أو عن استخدام اللغة من غير أهلها، وهذه يكاد يستحيل تلافيها. وعيوب ناتجة عن التكلّف في الخطاب، أو قلة إتقان لقواعد النحو والصرف (اللحن).

يقول بخصوص القسم الأول: «والذي يعترِي اللِّسان ممَّا يمنع من البيان

أمور: منها اللُّثغة التي تعتري الصِّبْيان إلى أن ينشَّؤوا، وهو خلافُ ما يعتري الشَّيخ الهرِمَ الماجّ، المسترخيَ الحَنَك، المرتفعَ اللِّثة؛ وخلافُ ما يعتري أصحاب اللَّكن من العَجَم، ومن يُنشَّأ من العرب مع العجَمْ»، ويضيف حول ما يعتري أصحاب اللكن من العجم: «ألا ترى أنّ السِّنْدي إذا جُلبَ كبيراً فإنه لا يستطيع إلاّ أنْ يَجعلَ الجيم زاياً... وكذلك النبطيُّ القُحُّ... يجعل الزّايَ سيناً، فإذا أراد أن يقول: زَورَق، قال: سَورْق، ويجعل العين همزة».

أما القسم الثاني فيشير إلى بعض العيوب النفسية، كالإعادة والحُبْسَة والاستعانة، كما يشير إلى التشادق، والتقعّر، واللجوء إلى الغريب المهجور الذي يذمّه الجاحظ بشدّة من جهة، ومن جهة أخرى يشير إلى اللحن في اللغة، وعدم إتقان إعرابها، ويكثر من سرد النوادر حول اللاحنين من العرب إثر مخالطتهم للعجم، خاصة عصر بني أمية، إذ كان اللحن مستهجنا.

وإشارات الجاحظ المتكررة لعيوب الخطاب تدفع إلى القول إنه يبحث عن خطاب رفيع راق، ويرى أنّ مثل هذا الخطاب لا بدّ أن تتوافر فيه «عناصر صوتية تجعل منه شيئا آخر غير كونه أداة تواصل عادية أو لغة يومية يتوخى منها الإفهام والتفهم فقط، أي أنّ العنصر الصوتيّ يحقق البلاغة والفصاحة على مستوى الإبلاغ الفنّي من حيث أنّ للأصوات اللغوية تأثيرا على المتلقي» (الرؤية البيانية عند الجاحظ: 158).

التناغم الإيقاعي:

ومن الموضوعات التي يوليها الجاحظ اهتمامه العنصر الصوتي في الشعر، حيث يركّز على أنّ من الألفاظ ما يتناغم ومنها ما يتنافر، مما يدعم الإيقاع الموسيقي الذي يحققه الوزن أو يطيح به، يقول: «ومن ألفاظ العرب ألفاظٌ تتنافر، وإن كان مجموعةً في بيت شعرٍ لم يستطع المنشدُ إنشادَها إلاّ ببعض الاستكراه... وإذا كانت الكلمةُ ليس موقعُها إلى جنْب أُختها مَرْضيّاً موافقاً، كان على اللِّسان عند إنشاد ذلك الشعر مَؤُونة... وأجودُ الشِّعر ما رأيتَه متلاحم

الأجزاء، سهلَ المخارج، فتعلمُ بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً، وسُبِك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدِّهان». ثم يقول: و«حروفُ الكلام وأجزاءُ البيت من الشِّعر... تراها مختلفةً متباينة، ومتنافرة مستكرهة، تشقُّ على اللسان وتكُدُّه، والأخرى تراها سهلةً ليّنة، ورَطْبة مُتَواتية، سلِسةَ النِّظام، خفيفةً على اللِّسان؛ حتى كأنّ البيتَ بأَسْرِه كلمةٌ واحدة، وحتّى كأن الكلمةَ بأسرها حرفٌ واحد». ثم يشير إلى بعض القوانين الصوتية في ألفاظ العربية -كعادته- إشارة عابرة غير متمعنة على أهميتها وتميزها: «الجيم لا تقارِن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم ولا بتأخير، والزّاي لا تقارنُ الظَّاءَ ولا السِّين ولا الضاد ولا الذال، بتقديم ولا بتأخير».

التناص:

لا يسمي الجاحظ التناصّات التي يوردها في «البيان» سرقة، كما فعل كثير من نقادنا القدماء، فلعلّه كان يحسّ إحساسا عميقا بضرورة هذا المنحى في الفنّ، وأنّ معيار التمايز في صياغة المعنى، لا في السبق إليه، كيف لا وهو الذي يرى أنّ من العجز وضعف الهمة أن يقول اللاحق: ما ترك السابق لنا شيئا. ويتبين هذا من تعليقه على بيت الحطيئة:

متى تأته تعشو إلى ضوءِ ناره تجدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ

«وقد كان الناس يستحسنون قولَ الأعشى:

تُشَبُّ لِمَقْرورَيْنِ يصطليانها وباتَ على النار النّدى والمُحلّقُ

فلما قال الحُطيئة البيتَ الذي كتبناه قبلَ هذا سقط بيتُ الأعشى».

الانفتاح الفكري:

يقدم الجاحظ في إحدى روايات «البيان» نموذجا رفيعا للانفتاح الفكري، وقبول الرأي الآخر، والذي يظهره شاعران أمويان من ألمع الشعراء، وذلك إذ يقول: «لم يَرَ الناسُ أعجبَ حالاً من الكُميت والطرِمّاح، وكان الكميتُ عدنانياً عصبيّاً، وكان الطرِمّاح قَحطانياً عَصَبيّاً، وكان الكميت شِيعيّاً

من الغالية، وكان الطرِمَّاح خارجيّاً من الصُّفريّة، وكان الكميت يتعصَّب لأهل الكوفة، وكان الطرمَّاح يتعصب لأهل الشام، وبينهما مع ذلك من الخاصَّة والمخالَطة ما لم يكن بين نَفْسَين قطّ، ثم لم يَجْر بينهما صَرمٌ ولا جَفْوةٌ ولا إعراض، ولا شيء مما تدعو هذه الخصالُ إليه».

لمعات في علم الاجتماع:

كما يقدم من خبرته الحياتية بعض اللمعات الاجتماعية في أنّ الإنسان كائن اجتماعي يتأثّر بالمحيط إذ يقول: «لو جالَسْتَ الجُهّالَ والنَّوْكى، والسُّخفاءَ والحمقَى، شهراً فقط، لم تَنْقَ من أوضار كلامهم، وخَبال معانيهم، بمجالَسة أهل البيان والعقل دهراً؛ لأنّ الفسادَ أسرعُ إلى النّاس، وأشَدُّ التحاماً بالطبائع، والإنسانُ بالتّعلُّم والتكلُّف، وبطُول الاختلاف إلى العلماء، ومدارَسة كُتُبِ الحكماء، يَجُودُ لفظُه ويحسُن أدبُه، وهو لا يحتاج في الجهل إلى أكثَرَ من ترك التعلُّم، وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التخيُّر».

ثم يشير إلى أنّ ما يستميل الجمهور ليس الحقيقة المطلقة، بل ما يداعب المشاعر أو الأحاسيس التي تتناسب مع مستوى العقول، أما العالم الحكيم فيعرف حقائق مقادير المعاني ولا تدغدغه إلا الحقائق الكبرى، وحب المعرفة: «وليس يَعْرف حقائقَ مقاديرِ المعاني؛ ومحصولَ حدود لطائف الأمور، إلاّ عالمٌ حكيم... لا يميل مع ما يستميل الجمهورَ الأعظمَ، والسوادَ الأكبر».

مساءلة النصّ:

وفي موقفه من صحة النص – حديثا كان أو رواية تاريخية – يقدم الجاحظ نموذجا في القراءة النقدية التي لا تكتفي بالنظر إلى صحة الرواية، بل تسائل المتن باستخدام المنطق العقلي، من ذلك مناقشته لحديث يذكر البيان والعيّ: «وقد زَعمتم أنّ رسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم قال: شُعبتانِ من شُعَبِ النِّفاق: البَذاء والبَيان، وشُعبتان من شُعب الإيمان: الحياء والعِيّ، ونحن نعوذُ

بالله أن يكون القرآن يحثُّ على البيان ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يحثُّ على العيّ، ونعوذُ بالله أن يجمعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين البَذاء والبيان، إنما وقَعَ النَّهْيُ على كلِّ شيءٍ جاوَزَ المقدار، ووقع اسمُ العِيِّ على كلِّ شيءٍ قصَّر عن المقدار، فالعِيُّ مذمومٌ والخَطَل مذموم، ودينُ الله تبارك وتعالى بين المقصِّر والغالي».

كما يقول تعليقا على خطبة لمعاوية بن أبي سفيان لما حضَرتْه الوفاةُ: «وفي هذه الخطبة أبقاك اللهُ ضروبٌ من العجب: منها أنّ الكلام لا يشبه السَبَب الذي من أجله دعاهم معاوية، ومنها أنّ هذا المذهبَ في تصنيف الناس، وفي الإخبار عمّا هم عليه من القَهر والإذلال، ومن التَّقيّة والخوف، أشبه بكلام علي رضي الله عنه ومعانيه وحاله، منه بحال معاوية، ومنها أنّا لم نجدْ معاويةَ في حالٍ من الحالات يسلُك في كلامه مَسلكَ الزُّهّاد، ولا يذهبُ مذاهب العُبّاد، وإنما نكتب لكم ونخبِرُ بما سَمِعناه، والله أعلمُ بأصحاب الأخبار، وبكثيرٍ منهم».

ويبدو الجاحظ ناقدا ناضجا يقدم تساؤلاته العلمية، التي تجمع بين دقة الملاحظة والاهتمام بأحوال الكاتب النفسيّة، يقول: «وليس في الأرض أعجبُ من طرفَةَ بنِ العبد وعبد يغوث، وذلك أنّا إذا قسنا جودةَ أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما لم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمْن والرّفاهيَة».

كما يلاحظ تأثر يزيد بن المُهَلّب بالقرآن في قوله:

كَرِهتُ وكان الخَيرُ فيما كرِهتُه وأحببتُ أمراً كان فيه شَبَا القتل

فيعلّق قائلا إنه «مثلُ قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿ **وَعَسَى أنْ تكْرَهوا شيْئاً وهو خَيْرٌ لَكُم وَعَسَى أن تُحبُّوا شيئاً وهو شَرٌّ لَكُمْ** ﴾ [البقرة: 216].

قضية القومية العربية:

ربما كان الجاحظ من أوائل المدركين للعناصر التي تقوم عليها القوميات، فهو يوضح هذه العناصر بدقة في النصّ التالي: «العرب كلُّهم شيءٌ واحد؛

لأنّ الدارَ واحدة والجزيرةَ واحدة، والأخلاق والشِّيَم واحدة، واللغة واحدة، وبينهم من التصاهُر والتشابُك، والاتِّفاق في الأخلاق وفي الأعراق، ومن جهة الخُؤولة المردّدة والعمومة المشتبِكة، ثم المناسَبة التي بُنيت على غريزة التُّربة وطِباع الهواء والماء، فهمْ بذلك شيءٌ واحد في الطَّبيعة واللغة، والهِمَّة والشمائل، والمَرْعَى والرَّاية، والصِّناعة والشّهوة».

ثم ينتبه إلى أنّ النسابة يرجعون العرب إلى قسمين: عدنانية وقحطانية، فيؤكّد أنّ رجوع القسم الأول من العرب إلى إسماعيل لا ينتقص من عروبتهم شيئا: «والمشاكلةُ من جهة الاتِّفاق في الطبيعة والعادة، ربَّما كان أبلغَ وأوغَلَ من المشاكلة من جهة الرَّحِم، نعم حتى تراه أغلَبَ عليه من أخيه لأمِّه وأبيه، وربَّما كان أشبَهَ به خَلْقاً وخُلُقاً، وأدَباً ومذهَباً... وقالوا: الناس بأزمانهم أشبهُ منهم بآبائهم، وقد رأينا **اختلاف صُوَر الحيوان، على قدر اختلاف طبائع الأمكان، وعلى قَدْر ذلك شاهدنا اللُّغات والأخلاقَ والشهوات**... ولولا أنَّ الله عزَّ وجل أفرَدَ إسماعيلَ من العجم، وأخرجَه بجميع معانيه إلى العرب، لكان بنو إسحاقَ أولى به».

وتظهر آراء الجاحظ القومية المتعصبة في قسم واسع من «البيان»، وهو يخصص كتاب العصا للردّ على الشعوبية، لكنّ طبيعة العصر الذي عاشه فرضت عليه هذه المواجهة القومية. ثم إنه يدرك أنّ كثيرا من مختاراته في "البيان" تنقل صورة زاهية لعصر الأمويين، فيخرّج ذلك تخريجا يتوافق مع حربه الشرسة مع الشعوبية: «قد يجب أن نذكرَ بعض ما انتهى إلينا من كلام خُلفائنا من وَلَد العباس، ولو أن دولتَهم عجميّة خُراسانيّة، ودولة بني مَرْوان عربيّة أعرابيّة وفي أجناد شاميّة، والعرب أوعى لما تسمع، وأحفظ لما تأتي، ولها الأشعار التي تقيّد عليها مآثرَها، وتخلّد لها محاسنَها، وجَرَت من ذلك في إسلامها على مثل عاداتها في جاهليّتها، فبنَت بذلك لبني مَرْوانَ شرفاً كثيراً ومجداً كبيراً، وتدبيراً لا يُحصى، ولو أنّ أهلَ خُراسان حفِظوا على أنفسهم وقائعَهم في أهل

الشام، وتدبير ملوكهم، وسياسة كبرائهم، وما جرى في ذلك من فرائد الكلام وشريف المعاني، كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه، وأسّس لمن بَعده ما يَفي بجماعة ملوك بني مروان».

كلمة أخيرة:

هذه جملة من القضايا التي تناولها الجاحظ في «البيان»، الذي لن تعدم فيه معلومات مهمة عن الرواة واهتماماتهم، والمتكلمين وتميزهم، والزهاد وحكمهم ونوادرهم، والأعراب وبديهتهم وقرائحهم، وغير ذلك من القضايا والروايات والأشعار والخطب التي تجعل منه كنزا ثمينا من كنوز المعرفة والثقافة. لكنّ المقام يضيق عن التعرّض لأكثر مما ورد، كما أنّ الهمة تقصّر عن الإحاطة بكلّ ما فيه.

* * *